

## حياتك مع الكتب (1)

الحياة مع الكتب هي حياة أخرى , لا تتطابق ولا توجد وشائج بينها وبين حياتك الاعتيادية . أنت تمضي في طريق , وهي في طريق آخر .

لكن لا تعدمان فيما بينهما التأثير أو حتى الصراع , إذا كان ثمة قوة ما تحركهما .

قد توسع هذه الحياة من مستعمراتها على حساب مستعمراتك , تحتل شيئاً فشيئاً ما ينتمي إليك طبيعياً , ما اكتسبته بالوراثة أو حتى بالتربية.

اللغة دائماً ما تأتي في المقدمة , لغتك حصنك الحصين التي استودعت فيها أسرارك , أحاسيسك ومشاعرك , أوجاعك وأفراحك , هي عيناك ويداك ولسانك , وكل ما يمت إلى تفكيرك بصلة وثيقة , هي باختصار وجودك الثاني بعد جسدك.

هل فكرت بذلك مسبقاً ؟

هل فكرت أن الحياة بين الكتب - في يوم - ما سوف تستعمر لغتك وتحتل مدنها وطرقها وشوارعها وبيوتها حتى تأتي لحظات عليك معينة , وتشعر معها أنك أصبحت رجلاً غريباً في دارك ؟

نعم , الكثير خبروا مثل هذا الشعور , ولم يعرفوا كيف يفسرون أسبابه؟

في بعض المواقف في حياتك الاجتماعية واليومية لا تحتاج إلى لغة الكتب , تريد أن تستدعي فقط لغتك الطبيعية التي تربيت عليها , وذلك عندما تكون بين جمع من العائلة أو الأصدقاء , أو بين زملاء العمل , الذين لا شأن لهم بعالمك الذي تحياه بين الكتب.

بكل بساطة يستعصي عليك الأمر , أو يشق عليك أن تبحث بين مفرداتك ما يسعفك أن تعبر من خلالها عن دواخلك بسهولة مطلقة , ما يسعفك أن تتفاعل مع ما يدور حولك من كلام , هو في عرف لغتك التي اكتسبتها من حياة الكتب بسيطة وساذجة في الأغلب الأعم إذا كنت ممن يقدر الآخرين , أما خلاف ذلك فأنت لا ترى فيها

سوى مضيعة للوقت , والابتعاد أسلم لك وللغتك ولمشاعرك .

لكن إلى أي مدى تفضي الحياة بين الكتب إلى مثل هذه الحالة ؟ وهل كل من طن نفسه أنه يعيش بين الكتب يصل به الأمر إلى مثل هذا الموقف من الاستعصاء ؟

بالتأكيد لن يكون الأمر كذلك . هناك تفاوت . لقد عبر العديد من الكتاب والقراء والشغوفين بجمع الكتب ومطاردتها بالأثر الكبير الذي تركته العلاقة بالكتب على حياتهم العامة . لكن ليس الجميع تغلغل هذا الأثر فيهم إلى درجة يرون إلى حياتهم انقلبت رأسا على عقب , القلة الذين غامروا بكل ما يملكون من أشياء ثمينة في حياتهم , من أجل الظفر بكتاب أو الحصول عليه بشتى الوسائل , في وقت عز فيه سهولة التواصل العالمي مثلما هو حاصل الآن .

في عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الفائت كان الحصول على الكتاب بمثابة الكنز الذي تطبق عليه بكلتا يديك , ولا يسعك التفريط فيه .

في ذلك الوقت كانت مكتبة الشاعر علي الشرقاوي في مملكة البحرين هي المصدر في توفير المراجع من الكتب المهمة التي تأتي بالخصوص من المغرب العربي . وبحكم قرب المسافة بينها وبين المنطقة الشرقية كانت البحرين هي الخيار الذي اختاره أغلب مثقفي المنطقة الشرقية في الحصول على الكتب. بعض الكتب المطلوبة لا تتوفر إلا على نسخ قليلة , فتضطر المكتبة تصوير الكتاب ونسخه لكثرة الطلب عليه .

جرى معي ذلك مع كتاب " النبيء والمطبوخ " للعالم الانثروبولوجي كلود ليفي شتروس , طلبته من الأستاذ علي الشرقاوي , ثم واعدته على يوم محدد بعد أن نسخته ورقيا , وعندما رجعت به , لم يمر من الجسر. كررت المحاولة ثلاثة مرات ولم تنجح . في المرة الرابعة نجحت . هذه صورة واحدة من صور الشغف الذي يؤدي بالتعلق بالكتاب إلى طريق لا رجوع فيه إلى الوراء أو التخلي عنه بسهولة . لكن ضريبته كبيرة , لا يتحملها كل من خاض فيه .